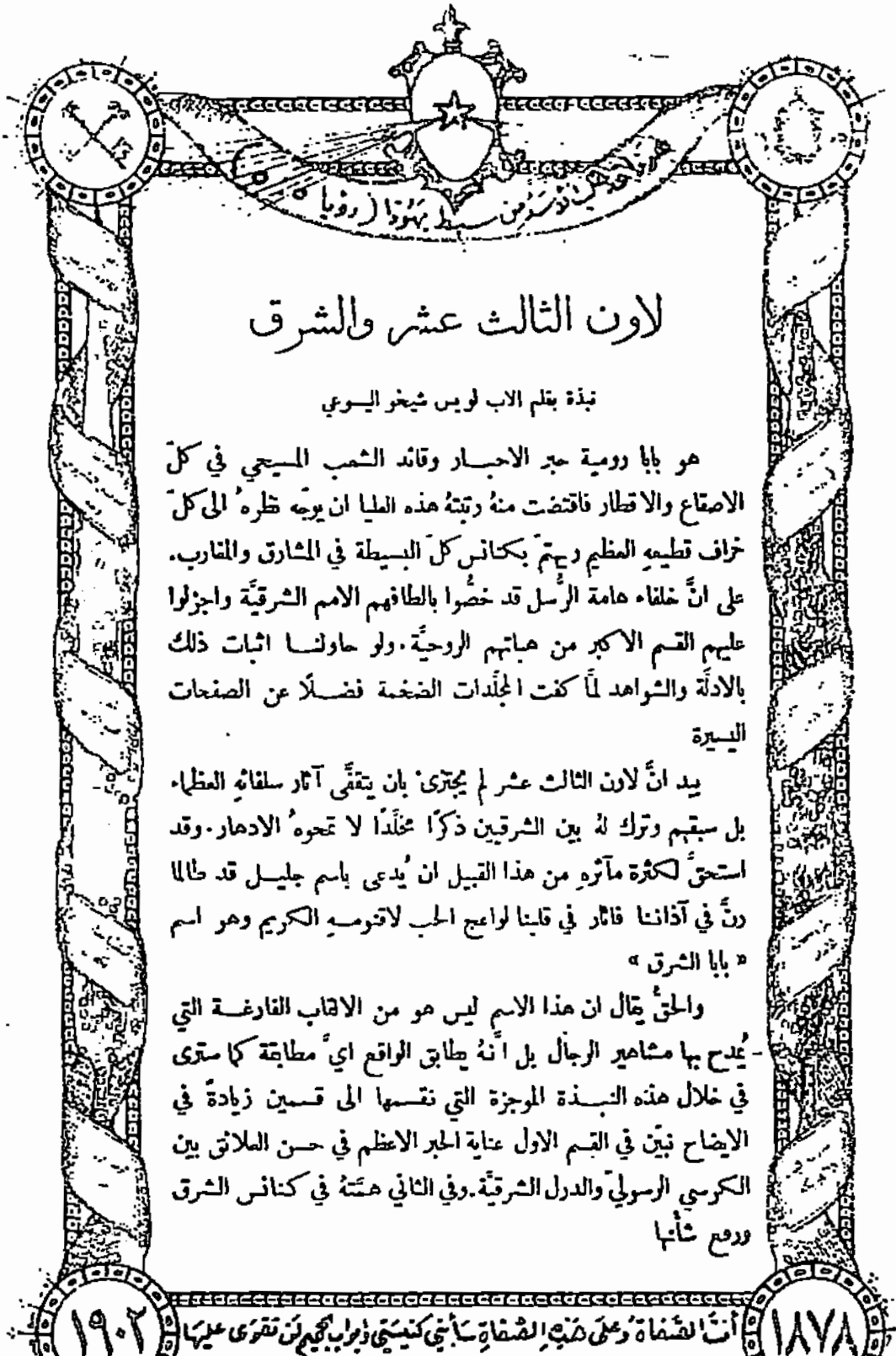

لاون الثالث عشر والشرق

نبذة بقلم الاب لويس شيخو اليسوعي

هو بابا رومية حبر الاحبار وقائد الشعب المسيحي في كلّ الاصقاع والاقطار فاقتضت منهُ رتبتهُ هذه العليا ان يوجّه نظرهُ الى كلّ خراف قطيعهِ العظيم ويهتمّ بكنائس كلّ البسيطة في المشارق والمغارب. على انَّ خلفاء هامة الرُّسل قد خصُّوا بالطافهم الامم الشرقيَّة واجزلوا عليهم القسم الاكبر من هباتهم الروحيَّة. ولو حاولنا اثبات ذلك بالادلَّة والشواهد لمَّا كفت المجلّدات الضخمة فضلًا عن الصفحات اليسيرة

بيد انَّ لاون الثالث عشر لم يجترئ بان يتقفّى آثار سلفائهِ العظماء بل سبقهم وترك لهُ بين الشرقيين ذكرًا مخلّدًا لا تمحوهُ الادهار. وقد استحقَّ لكثرة مآثرهِ من هذا القبيل ان يُدعى باسم جليل قد طالما رنَّ في آذاننا فاثار في قلبنا لواعج الحب لاقنومهِ الكريم وهو اسم « بابا الشرق »

والحقُّ يقال ان هذا الاسم ليس هو من الالقاب الفارغة التي يُمدح بها مشاهير الرجال بل انَّهُ يطابق الواقع ايَّ مطابقة كما سترى في خلال هذه النبذة الموجزة التي نقسمها الى قسمين زيادةً في الايضاح نبيّن في القسم الاول عناية الحبر الاعظم في حسن العلائق بين الكرسي الرسوليّ والدول الشرقيَّة. وفي الثاني همَّتهُ في كنائس الشرق ورفع شأنها

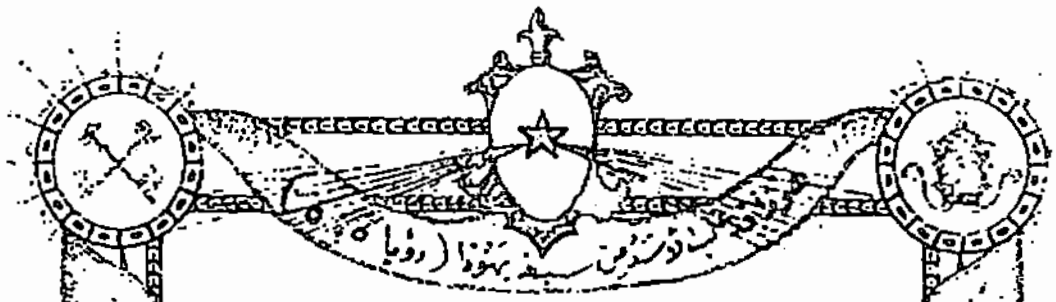

الكرسي الرسولي والدول الشرقية

يسرنا ان نفتتح هذا الفصل بذكر دولتنا العليَّة وحسن الصلات التي لم يتعكَّر صفاؤها في هذا ربع القرن بين متبوعنا الاعظم وسلطاننا الافخم ودولة الفاتيكان. فان الاب الاقدس مذ تبوَّأ عرش المملكة اظهر للحضرة الشاهانيَّة من الاكرام والتجلَّة ما حمل كلّ الكاثوليك الراتعين في ظلال الاريكة العثمانية على ان يستوثقوا بركن هذه الدولة ويُخلصوا لممثليها الكرام التعبُّد وصدق الانتماء.

وكان لهذه مجالي العز والرفعة احسن وقع في قلب جلالة السلطان لما فُطر عليهِ وطد الله دعائم دولتهِ بسمو المدارك وعلوّ الهمم فاظهر لنا نحن الكاثوليك من الرفق وحسن المعاملة ما زادنا تعلُّقًا بشخصهِ الكريم

ومن شارات الاجلال والمودَّة التي تعطَّفت بها الذات الشاهانية نحو تاج رأسنا وفخر ملَّتنا حبر الاحبار وراعي الرعاة ابينا الاقدس أنها ما أُوذنت بجلوسهِ على كرسي بطرس هامة الرسل حتى انفذت كعتمد خارق العادة بدروس قيوجيان من اعيان الارمن الكاثوليك لتهنئة قداستهِ بارتقائهِ الى رتبتهِ الشريفة

وما مرَّ على ذلك سنة ونصف سنة حتى اعربت الحضرة الشاهانيَّة ثانيةً عن سامي ودادها للحبر الروماني وذلك بجسم الخلاف الواقع في الملة الارمنيَّة الكاثوليكيَّة فارسل الحبر الاعظم رقيًا الى جلالة السلطان عبد الحميد خان يشكرهُ شكرًا جمًّا على فضّ هذه المسئلة وقطع دابر الشقاق. فاجاب عظمتهُ برسالة ضمَّنها ارق العبارات اشار فيها الى صدق اعتصام كاثوليك الشرق بالسدَّة العثمانيَّة أيد الله اركانها

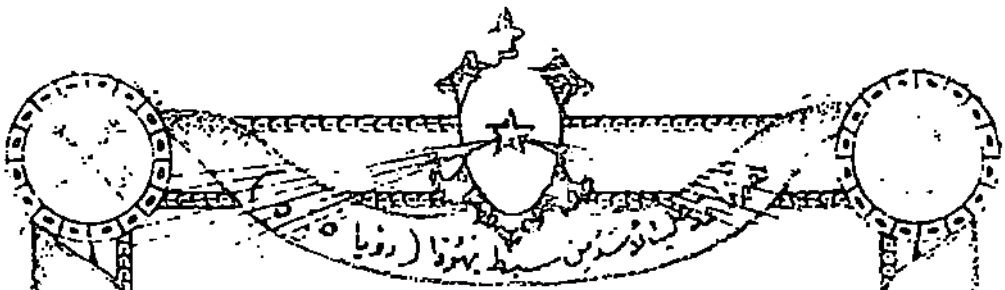

وكما حُلّت هذه الأُربة بواسطة العلائق الوديّة بين الحبر الاعظم وجلالة السلطان كذلك ما لبث الشقاق الواقع بين الكلدان الكاثوليك ان ينتهي ايضاً على وجه سامي بخضوع المخالفين لرؤسائهم بمساعدة عمّال دولتنا العلية

ومما ينطق بتبادل شارات الودّ بين الكرسي الرسولي والحضرة الملكيّة الهديّتان الملكيّتان اللّتان ارسلهما جلالة مليكنا الغازي الى قداسة البابا لاون الثالث عشر بنسبة عيديه اليوبيليّين الكهنوتي والاسقفي في سنتي ١٨٨٧ و ١٨٩٢ وكانت الهديّة الاولى خاتماً ثميناً ليس لهُ ثانٍ وهو عبارة عن حجر كريم بل جوهرة يتيمة كبيرة الحجم بيضيّة الشكل كانت محفوظة في خزائن السلطنة منذ قديم العهد تنبعث منها اشعّة تنعكس انوارها على الزوايا فيخال انها مجموع احجار كريمة تشعُّ منها ألوان قوس قزح. وقد اختار عظمتهُ لهذه الفريدة غلافاً ثميناً من الذهب رسم شكلهُ بيدهِ الشريفة فصيغ على هيئة تاج ملكي تقطع من فروجهِ اشعّة الخاتم المذكور

اما هديّة اليوبيل الاسقفي فكانت في اعيننا نحن الكاثوليك افخر من السابقة ألا وهي الكتابة الجليلة التي نقشها القديس ابرقيوس اسقف هيرابوليس وتلميذ الرسول يوحنا الحبيب في اواسط القرن الثاني للمسيح على صفيحة اعدّها لتجعل فوق ضريحهِ. وفي هذه الكتابة اشارة واضحة الى رئاسة الاحبار الرومانيين على الكنيسة قاطبةً في الشرق والغرب والى اسرار البيعة لاسيما سرّ القربان الاقدس وفيها دليل على انتشار النصرانيّة في انحاء العالم الروماني مذ ذاك العهد. وهذه الكتابة اكتشفها العالم البروتستاني رمساي (Ramsay) فاحبّ سلطاننا المعظم

ان يتحف بها قداسة ابينا خليفة بطرس الصفا ونائب المسيح على الارض فاكتسب بذلك جازاهُ الله خيرًا شكر العالم الكاثوليكي باجمعهِ

ولنا على حسن ألطاف الحضرة الشاهانيَّة غير هذه الدلائل المثبتة باكرامها لامام الاحبار من ذلك ما وجدهُ من الالتفات السامي لدى الباب العالي قصَّادنا الرسوليون لاسيما السادة ڤانوتلي وغراسلي وبرنتي وبطاركتنا الاجلاء. واساقفتنا المديدون. فكم فاضت عليهم نعم الحضرة الشاهانيَّة اذ تبرَّعت عليهم بالوسامات الشريفة والامتيازات المنيفة والهبات الماليَّة لم تُستثنَ من تعطُّفها طائفةٌ واحدة. وقد لقي رهباننا وراهباتنا من ملاطفة السلطان الاعظم وانسهِ ما أسر قلوبهم بمحبَّتهِ على مدى الايام

وان سرَّحنا النظر بعد هذا الى بقيَّة الانحاء الشرقيَّة وجدنا ان قداسة الحبر الاعظم استمال الى شخصهِ الكريم كل ارباب السلطة في الدول الشتَّى حتى الشرق الاقصى

فمن هذه الممالك التي خصَّت لاون الثالث عشر بالتودُّد والاجلال دولة العجم ودولة اليابان ودولة الصين ودولة الحبش فانَّ اصحاب كل هذه الدول كرَّروا الادلَّة على تقديرهم لسموّ مقام ابي المؤمنين وعزمهم على مواصلة العلائق الحبيَّة بينهم وبين البلاط الڤاتيكاني ورحَّبوا بممثلي نائب المسيح ورخَّصوا للمرسلين بثّ انوار الانجيل بين رعاياهم

وفي المتحف الڤاتيكاني ألطاف وهدايا ثمينة ارسلها هؤلاء الملوك الى رأس الكنيسة. هذا فضلًا عن الوفود والمعتمدين والرسائل التي انفذتها كل دولة من دول الشرق. ومن الالقاب المستأذة التي وردت

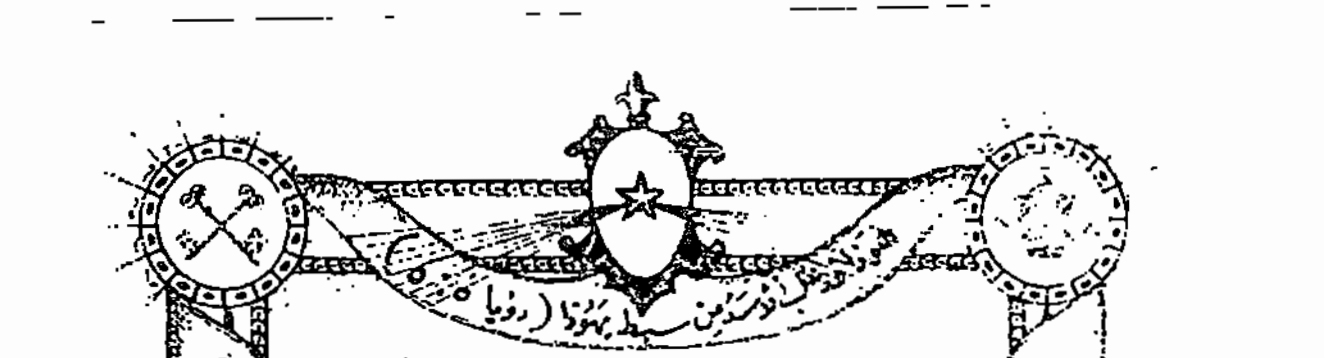

في رسالة ملك الصين انهُ دعا لاون الثالث عشر « امبراطور ديانة السماء ». فكان من نتائج هذه المظاهر البهية ارتفاع شأن الكنيسة الكاثوليكيَّة في كلّ الاقطار دون استثناء. ويلحق بهذا الباب اشياء أخرى كثيرة لا نُفيض في ذكرها بعد ما كتبهُ في هذا الشأن حضرة الاب هنري لامنس في نبذتهِ المَعْنونة « لاون الثالث عشر والدول »

٣ الكنائس الشرقية

اعلم انَّ خلَف هامة الرسل لم يُبدِ من الهمَّة ما ابدى نحو دول الشرق الَّا لخير كنيسة المسيح وتثبيت دعائم الدين ورفع منار الحق بين الشعوب قاصيها ودانيها. وان قصرنا النظر على كنائس الشرق وجدنا لهُ مآثر لا يحصيها العدّ

(الكنيسة اللاتينيَّة) للكنيسة اللاتينيَّة اليوم في الشرق نحو اربعة ملايين من النَّسمة دخل الثلث منهم في الحظيرة البطرسيَّة في عهد ابينا الحبر الاعظم لاون الثالث عشر. والفضل لتداستهِ في انشاء رسالات عديدة ونيابات رسوليَّة واسقفيات في كل نواحي الشرق. فانهُ صانهُ الله ظلَّم في سنة ١٨٨٧ كراسي الهند فجعلها اسقفيَّات ورؤساء اسقفيَّات يبلغ اليوم عدد المنصَّبين فيها اربعين راعياً. وكذلك انشأ الحبر الاعظم في الصين عشر نيابات رسوليَّة. ونحو ذلك في الهند الصينية

امَّا اليابان فان البابا في ١٥ حزيران من سنة ١٨٩١ قد اقام لمتنصريها مطرانًا في توكيو وتحت امرهِ ثلاثة اساقفة في هاكوداته وناغازاكي واوساكا فصارت بذلك الكنيسة اليابانيَّة تامَّة الأُهبة مستقلة التدبير يُرجى لها تقدُّم كبير

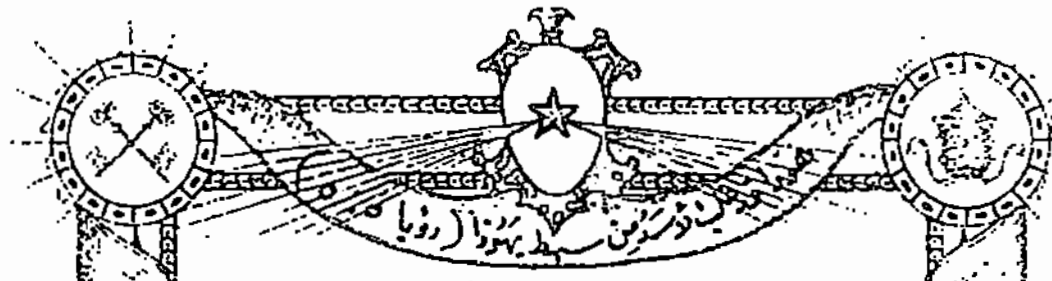

ثمَّ اننا نضرب صفحاً عن ذكر تقدُّم الكنيسة اللاتينيَّة في الممالك الشاهانيَّة في عهد قداستهِ مكتفين بما كتبناهُ سابقاً عن ذلك

(الكنائس الشرقية) نعتبر في عداد هذه الكنائس كلَّ الطوائف التي لا تتبع الطقس اللاتيني سواء كانت في الشرق او خارجاً عنهُ

واوَّل ما يتحتم علينا ذكرهُ ان قداسة الحبر الاعظم لاون الثالث عشر يجلُّ هذه الطوائف الشرقيَّة وطقوسها القديمة . وليس احد من البابارات اسلافهِ تشدَّد مثلهُ في صيانة هذه الطقوس وتعظيمها وقد اعرب عن نيَّتهِ المذكورة في جملة كتابات او خطب علنيَّة فاه بها شفاهاً بازاء الكرادلة او وفود الشرق . غير انهُ كشف عن نيَّتهِ هذه بنوع اصرح في رسالتهِ الرسوليَّة الصادرة في ٣٠ تشرين الثاني سنة ١٨٩٤ حيث استرسل في شرف الكنائس الشرقيَّة فعزَّز طقوسها وميَّزها بامتيازات جديدة استجلبت اليهِ خواطر الشرقيين وجعلتهم اسرى معروفهِ

ومن الدلائل العموميَّة التي شمل بها خلف هامة الرسل الكنائس الشرقيَّة تجديد الاكرام للقديسين الشرقيين ورفع رتبهم في الطقوس الكنسيَّة فجعلهم في درجة اعظم الملافنة الغربيين تُقام لهم اعياد متساوية . ومن جملة هؤلاء اولياء الله العظام الذين احيا ذكرهم القديسون يوستينوس المعلم وكيرلُّس الاسكندري وكيرلُّس الاورشليمي ويوحنَّا الدمشقي ثمَّ ميثوديوس وكيرلوس رسولا الصقالبة . وقد وضع الاب الاقدس لكل هؤلاء صلوات وتراجم وليتورجيَّات من تأليفهِ او قصائد من نظمهِ

ومن هذه الدلائل ايضاً مجمع البطاركة الشرقيين الذي عقدهُ الحبر الاعظم في رومية سنة ١٨٩٥ وتفاوض فيهِ مع الرؤساء الشرقيين او نوَّابهم في شؤون كنائسهم ورفع منارها وتوسيع نطاقها. وقد اضاف قداستهُ الى عباراتهِ الرائقة الدالَّة على معظم حبّهِ لهذه الطوائف مساعدات ماليَّة تقرّب لاصحابها نوال المرغوب

وكان قداستهُ سبق قبل هذا المجمع بسنتين فاوعز بعقد المجمع القرباني في القدس الشريف يلتئم فيهِ رؤساء الطوائف الشرقيَّة ليتباحثوا في امور طقوسهم ويتضافروا في العمل ويستميلوا الاخوة المنفصلين. فكان لهذا المؤتمر ما كان من حسن الاثر وارتباط القلوب باواخي الوحدة الكاثوليكيَّة

وكان الحبر الاعظم اوَّل من سعى في تحقيق اماني المجتمعين في هذا المؤتمر وقد تقدَّم الى جمعية الرسالات الكاثوليكيَّة بان تعضد الطوائف الشرقيَّة بما امكن من التقادم الماليَّة رجاء ان يزيد نفوذها بين الملل المنفصلة لتسهل لهم الارتداد الى حجر الكنيسة المقدسة

ولم يكتفِ قداستهُ بذلك حتى وجَّه في اواسط حزيران من سنة ١٨٩٦ الى كلّ الطوائف غير المتحدة مع السدَّة البطرسيَّة تلك الرسالة العجيبة التي لا يقف عليها قارئ ممن لا تُغشي على بصيرتهِ اوهامُ الضلال دون ان يستسلم منقاداً الى براهينها اللامعة وحججها الدامغة. ومدارها على وحدة الكنيسة تلقَّاها العالم باجمعهِ بالثناء العاطر وقد قرَّظها كثيرون من غير الكاثوليك ولم يجدوا فيها مغمزاً واقرُّوا انها ناتجة من قلب ابوي متلهب حبّاً نحو بنيهِ لا يريد سوى خيرهم وسعادتهم الابديَّة. وقد شاء الله ان يعزّي نفس هذا الراعي

الصالح باهتداء كثيرين من الضالّين الى حظيرة الايمان منهم ناسطرة وبعاقبة وغريغوريّون واقباط وروم يبلغ عددهم نيفاً وثمانين الفاً

ومع كلّ هذه شارات اللطف والتعطّف التي ابداها اسير الفاتيكان نحو الكنائس أبى حبُّهُ الّا ان يضيف الى هذه النعم العمومية مواهب خاصّة افاضها على كلّ طائفة من هذه الطوائف لم يستثنِ منها واحدة

فمن نعمه الى (الارمن) الكاثوليك انّهُ بعد لأمهِ الصَّدْع الواقع بينهم رقّى بطريركهم الطيّب الذكر الى منصب الكردينالية فكان غبطة السيد حسّون ثاني الكرادلة الشرقيين بعد بَّاريون العظيم. وزاد البابا على نعمه هذه انهُ انشأ للارمن في عاصمة الكثلكة مدرسةً يتثقّف فيها الشبّان قبل ان ينتظموا في بلادهم الى اعمال الرسالة والتبشير

وكذلك طائفة (الكلدان) فانَّ قداستهُ لم يكتفِ برأب الخلاف الذي حدث فيها بسبب مسئلة الميلار. بل تلطّف في هذه السنين الاخيرة فجعل لكلدان الهند اساقفةً من طائفتهم يرسمهم تحت نظارة الكرسي الرسولي فكانت هذه النعمة مدعاةً الى حسم الشقاق في تلك البلاد بعد ان كان عشّش فيها روح الفتنة منذ أمد مديد

ومن آثار انعطاف لاون الثالث عشر نحو (السريان) بجمع الشرقة انعقد بايعازه وتصدّر فيه باسم الاب الاقدس القاصد الرسولي في سوريّة غبطة بطريرك اورشليم الحالي السيد الجليل لودوفيكوس بياقي.

وكان هذا الجمع غاية في النظام والاتساق وُضعت فيه قوانين مملوءة حكمةً اثبتها امام الاحبار بسلطانهِ الاسمى

ولا حاجة للاسهاب في ذكر احسانات قداسة البابا نحو (الأُمة المارونيَّة) اذ يعرف الكل كما قال غبطة بطريركها المفضال في منشورهِ الاخير « انها كانت ولم تزل موضوعاً لانعطافهِ الخاصّ وعنايتهِ الممتازة فاولاها من مننهِ وآلائهِ ما لا تفي بشكرهِ ابد الدهر » فكم من مرَّة اثنى قداستهُ على ثبات الموارنة في الايمان وتعلُّقهم بالكرسي الرسولي. وكم اجزل من الهبات على رؤسائهم. وكم اتحفهم بالرسائل المتضمنة ارقّ عبارات التودُّد. وبهمَّة الكرسي الرسولي نُشر تعريب الجمع اللبناني لسيادة المطران الجليل يوسف نجم رئيس اساقفة عكَّا.

وقد احيا الاب الاقدس في رومية المدرسة المارونيَّة التي ادَّت في القرون السالفة خدماً عظيمة للدين والآداب بمشاهير رجالها وابتنى لها معاهد فسيحة وعيَّن لثانية من تلامذتها رواتب دارَّة ثمّ ضاعف بعد مدَّة هذا العدد لتشمل احساناتهُ قسماً اكبر من الطائفة المارونيَّة

اما (الروم الملكيون) فقد اختبروا تعطُّفات لاون الثالث عشر مراراً عديدة فتَرطَّب لسانهم بالشكر لقداستهِ. فانَّ حبر الاحبار اعلن في رسالاتهِ كم يجلُّ طقوسهم ويعتبر ملافنتهم وقديسيهم العظام. وتحنَّى ببطاركتهم واساقفتهم وسعى في تأليف القلوب بينهم وحضَّهم على اقامة مجمع ينظمون فيهِ شؤون الطائفة. وفي سنة ١٨٨٢ اجاز لسيادة الكردينال لاڤيجري ورهبانهِ الافاضل بانشاء مدرسة القدّيسة حنَّة في القدس الشريف يوضع فيها المترشحون للكهنوت افاريق العلوم

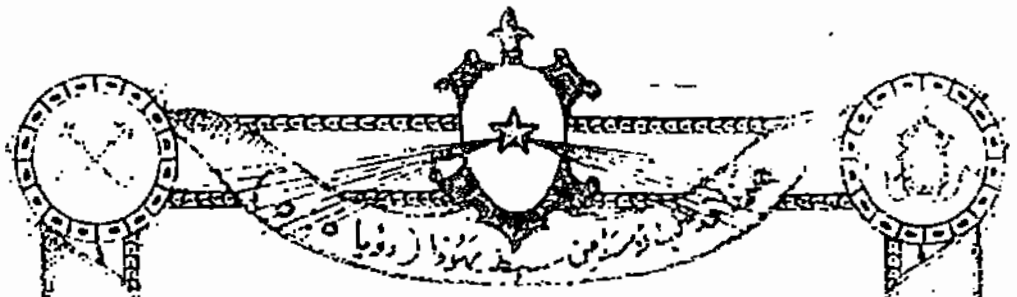

والفضائل الاكليريكية. فكان هـذا المشروع من اعظم الوسائل لنجاح الطائفة الملكيَّة. ثمَّ أضاف الاب الاقدس على فضله السابق ضمةً جديدة في سنة ١٨٩٧ لمَّا انشأ في رومية مدرسةً (لليونان) عهد بامرها الى الرهبان البندكتيين وجعلها تحت شفاعة القديس اثناسيوس

ولم ينسَ سيِّد الاحبار فروع الكنيسة اليونانيَّة (كالصقالبة والروتان والباشار والرومان) فانهُ كرَّر نحوهم شارات حبِّه السامي ففتح لهم المدارس في رومية العظمى ووجَّه اليهم البراءات الرسوليـة وعظَّم رُسلهم الذين نشروا بينهم الايمان ودافع عن حرِّيتهم الدينيَّة. ولمَّا رأى الرهبان الباسيليين في بلاد پولونيا في حاجة الى الاصلاح وكَلَ الى الاباء اليسوعيين تهذيب طلَّابهم وتنظيم شؤونهم الروحيَّـة. وقد ختم ابو المؤمنين جملة افضاله ببراءة أمر فيها بانشاء مدرسةٍ علمية في (اثينة) يتثقَّف فيها احداث اليونان في الآداب والمعارف. فكانت هذه المنَّة الجديدة من بشائر السنة اليوبيليَّة اعرب بها الحبر الاعظم عن رغبته في ترقي العنصر اليونانيّ

اما (الكنيسة القبطيَّة) فانَّ الاب الاقدس يعدُّها كبنياميته ويجعل لها حصَّة كبيرة من عجالي عنايته. كيف لا وهو الذي احيا بطريركيَّة الاقباط الكاثوليك سنة ١٨٩٩ واقام عليها رؤساء ذوي غيرة وصلاح حديثين في السنّ كبيرين في الفضل ليس لهم فكر سوى انارة اخوتهم المنفصلين. وقـد اثبت اعمال مجمعهم فجعلهُ كدستور يرجعون اليه وقاعدة ثابتة يستندون اليها. اما اكليروسهم فاكثرهُ عمل يدي لاون الثالث عشر فانَّ قداستهُ انشأ اولًا للاقباط مدرسة العائلة المقدسة في القاهرة خرج منها رجال افاضل انهوا دروسهم الاكليريكيَّة في كليَّتنا

في بيروت. ولمّا كثر عدد المرتدّين الى الكنيسة وصار جمع العتة لا يفي بالحصاد عاد الاب الاقدس فصرف اموالًا طائلة لانشاء مدرسة اكليريكيّة فُتحت قبل سنتين في مدينة طرطا. هذا الى انعامات أخرى عديدة كهبات ماليّة وايفاد المرسلين وغير ذلك ممّا جعل الاقباط اسرى معروف لاون الثالث عشر وحلفاء جميلِ الفائض

وممّا يلحق بانعامات البابا الى الكرسي الاسكندري تعطّفاتهُ الى الاحباش. وقد كان الوفد المُرسل من قداستهِ الى ملكهم منليك كفاتحة للعلائق الحسنة بين الكنيسة الرومانيّة والكنيسة الحبشيّة. واليوم ترى هناك المرسلين اللازريين يفلحون بنشاط كرم الرب ويرون قطيعهم ينمو عددًا وفضلًا

هذه عجالة لخصنا فيها بعض اعمال الاب الاقدس تنطق كلها بعظم همتهِ بالشرق وكنائسهِ. فمساعيهِ تسر في قلوبهم لواعج الحب البنويّ نحو اقنومهِ الجليل وتولّد فيهم عواطف الخضوع للكرسي البطرسي الذي هو مصدر كلّ احسان ومنبع كلّ خير